# دور المجامع اللغويّة العربيّة
# في خدمة اللغة العربيّة

أ. د. مازن المبارك(*)

لقد شعرت بالسعادة والسرور حين دعاني المجمع إلى الحديث عن دور المجامع اللغوية العربية في خدمة اللغة العربية، وتلقّيت الدعوة بيسر، ولكني لست أكتم أنني حين جلست لأكتب شعرت بالضّيق والعسر!

إذا كان صعبًا أن نكلّف أحدًا إثبات أمر مختلفٍ فيه، أو التدليل عليه أو إيجاد حلٍّ لمشكلة مستعصية، فإن أَصعب منه أن تطلب البرهان على أمر قائم في بدائه العقول، أو شاع وانتشر وتمتّع برؤيته الناس وعاش في نعيمه المختصّون.

إن كثيرًا جدًّا مما نقوله ونكتبه اليوم، وكثيرًا جدًّا مما تسمعونه وتكتبونه اليوم ما كان ليكون على الألسنة والأقلام لولا ما قام به المجمع ومن آزره في إحياء اللغة وإخراج كنوزها ونشر مفرداتها. ولكن إلف الشيء وتعوُّده يُنسي المرء قيمته ويُفقده لذَّة التنعّم به! فالمرء لا يعرف قيمة الصحّة إلّا إذا افتقدها، ولا قيمة المال إلّا إذا افتقر، ولا قيمة العزيز من أم أو أب أو صديق إلّا إذا رحل عن دنياه. فهل لنا أن نفكّر بقيمة اللغة التي ترافقنا حياتنا، وتعبِّر

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ الدكتور مازن المبارك هذه المحاضرة في قاعة المحاضرات في المجمع بتاريخ ٢٤/ شباط/ ٢٠٢١م.

عن حاجاتنا وعواطفنا وآمالنا، بل هي رمز إنسانيّتنا المميَّزة بالنطق، فما كنا نكون لولاها؟ أليست هي المنّة التي منَّ الله بها علينا بعد منَّة الخَلق فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣-٤]؟ وكيف كنتم تكونون لولا البيان؟ وماذا كنا نكون لولا اللسان؟ أفيحتاج العاملون في حفظ اللسان وصون البيان إلى تقديم الوثائق وتعداد الإنجازات في خدمة الإنسان؟!

وما أظنّ الذي وضع هذا العنوان عن دور المجامع اللغوية، وجعلَه شعارًا لليوم العالمي للغة العربية = إلا رجلًا حكيمًا رأى زهد الناس في بضاعة المجامع، وما بضاعتهم إلّا اللغة...، ورأى غفلة الناس عن أثر اللغة في حياة الأمّة، فراح يسأل عن دور المجمع في هذا الزمن الصعب، يريد أن يُبصِّر من لا يدرك ولا يرى! ولقد ذكّرني هذا بواحد من العلماء هو أبو الحسن الخولاني الذي شكا عزوف الناس عن علوم الأدب في عصره، وشكا الفقر على علمه وفضله، فراح يبيع كتبه ليعيش، ولمّا عاتبته امرأته أنشأ يقول:

قالتْ - وأبدت صفحةً كالشمس من تحت القناع -:
بعتَ الدفاتر وهي آ خر ما يُباع من المتاع
فأجبتها ويدي على كبدي، وهمَّت بانصداع
لا تعجبي ممّا رأيـ ـت فنحن في زمن الضَّياع!

أيّها العرب، ويا من تحبّون العربيّة:

ولم أقل لكم: أيها السّادة، كما جرت العادة، لأنني أحدّثكم باسم اللسان الذي ينتسب إلى العرب، أو ينتسب العرب اليوم إليه، والعرب سادة السادات، ولغتهم أم اللغات؛

أمُّ اللغـات غـداة الفخـر أمّهـمُ وإن سـألتَ عـن الآبـاء فـالعربُ

لقد شعرت بالضِّيق إذ اُضطَرُّ إلى أن أتحدّث إلى عرب اليوم عـن مهمّـة رجال يقومون بخدمة لغتهم والعمل على رعايتهـا! أتحـدّث عمّـن يـدافعون عن مهمّة اللسان! أليس اللسان قلمَ القلب وترجمان الفكر ورسـولَ العقـل؟ أليس اللسان آلة التواصل بين الإنسان وأخيه، والأسرة وجارتها، والمجتمـع وطبقاته، والشعب وأمثاله؟ أليس لسان الفرد هو لسانَ الأمّة؟

أليس اللسان صورة لصاحبه، يرفعـه أو يهـبط بـه، ودليـلَ عقلـه، ومـرآةَ نفسه، ودليلَ انتمائه، ومفتاحَ شخصيتهِ ونسبتِه إلى أمّته؟

أفتتحدّث بعد ذلك كلِّه عـن دَوْر المجاهـدين تحـت رايـة هـذا اللسـان المنادي فـي بـلاد العـرب كلّهـا: أن هـذه أمـتكم أمـةً واحـدة، وأنـا لسـانكم فاسمعونِ؟!

إنها لمهمّة شاقّة ثقيلة على نفسي؛ لأن لساني يصعب عليه، وهو قلم إذا غمسته في مداد القلب عاد يحمل حرفًا من حروف العربية التـي تسـري فـي عروقي، أفيستجدي العربَ، أصحابَ اللغة – وهيهات – أن يسمعوا نداءه؟

أأعيش في عصر يحتاج العـرب فيـه إلـى أن يُبَصَّـروا بقيمـة لغـتهم فـي حياتهم، وإلـى أن يُبـيَّن لهـم دور علمائهـا وخـدّامها وحفّاظهـا فـي رعايتهـا وإنهاضها، وهي التي إذا نهضت نهضوا، وإذا ضعُفت ضـعفوا، وإذا ضـاعت ضاعوا؟! أبعد مئة سنة من قيام المجمع نسـأل عـن دوره وإنجازاتـه، ونحـن نعيش في خيراته؟ ألم يأن للذين يقرؤون العربيـة ويكتبونهـا أن يـدركوا دور المجمع فيما يقرؤون ويكتبون؟

إننا إذا كنا في هذا العصر في حاجة إلى بيان دور المجـامع اللغويـة فـي

الوطن العربي، فمعنى ذلك أننا نعيش في عصر صعبٍ ضُرِب فيه بالسدود والحُجب على الآذان والعيون، وعلى وعي الناس غشاوة تحول دون إدراكهم للأدواء وحاجتهم إلى الدواء! وهو أمر على جانب من الخطر كبير! وإذا كان عسيرًا عليّ أن أعدِّد مفاخر المجامع اللغوية وإنجازاتها، أو إنجازاتِ مجمع منها، فحسبي أن أضرب مثالًا واحدًا بمجمع من مجامعها، وهو مجمع دمشق.

على أني أذكّر قبل الحديث عن مجمع دمشق أنّ زُهْد بعض الناس بالمجمع ليس أمرًا جديدًا، فالأسباب الخُلُقية والنفسية الداعية إلى ضيق بعض الناس بالمجمع كانت معروفة منذ أُسِّس!! وقد تحدّث الأستاذ كردعلي عمّا لاقاه من صعوبات عند إنشائه للمجمع، وتحدّث عمّا كان من وشايات وأكاذيب في الحديث عن المجمع، وختم حديثه بقوله: «إن المجمع أعاد إلى الشام رونقها القديم في خدمة الآداب، وإن رجاله يسعَون إلى ربط حاضرها بغابرها، ويعرّفون العربَ أن أرضهم ليس لها ما يمنعها من أن تكون مباءة علم ومغنى أدب. وإن المجمعيين بما ينشرون من كتب ورسائل ومجلّة ليخدمون سورية خاصة والعرب عامّة بتعريفهم بما كان بعضهم يجهلونه من عظمة لغة العرب وتاريخهم ومدنيّتهم»[(١)].

وختم الرئيس الأول لمجمعنا كلامه بقوله: «المجمعيّون ليس لهم إلّا الصبر وسعة الصدر».

إنه أقدم المجامع اللغوية العربية تاريخًا وتأسيسًا، وأطولها عُمرًا، وأدومها مجلّة، ولعلّه أكثرها معاناة، وأقلّها موردًا، ومن أكثرها عملًا

(١) المُذكرات ج٥ ص٣١٨.

وإنتاجًا، وأبعدها عن الإعلام ذكرًا، وأغناها بزهد الناس من حوله فيه! ومع ذلك فهو المجمع الذي تمنّى د. طه حسين، في يوم من الأيام، - رحم الله تلك الأيام - أن تستطيع المجامع العربية السير على هداه، وتقليدَه فيما يقوم به.

وإن المتحدّث إليكم كان منذ طفولته على صلة بهذا المجمع، فلقد وُلدتُ بعد ولادته بعشر سنين، وطالما لعبت طفلًا بباحة مبناه في باب البريد، وما إن وَعَيْت حتى عرفت الكثيرين من أعضائه الأوائل، وجلست إليهم، وسمعت أحاديثهم، وحوارهم وطرائفهم، وما زالت صورهم وذكراهم حيّة تُنعش الوعي وتملأ النفس.

كبرنا أنا والمجمع معًا؛ وكتب الله لي أن أكون ممن أدركوا ما كان في زمن الطفولة، وما تمّ في عهد الفتوّة والشباب، وأما السّنون الأولى فقد أدركت فيها الحياة وما كان يغلب عليها أو يكثر فيها من لغةٍ هجينةٍ لا تطلُّ فيها كلمة عربيّة إلّا على نُدرةٍ واستحياء!، غلبها على الألسن مفرداتٌ تركيات وفارسيات وفرنسيّات وهجينات من لغات أخرى! شكّلت بمجموعها نسيجًا من كلام وحّدت أو جمعت بينه عامّية أهل الشام فكان لغتَهم!

لقد سمعت يومًا خالي، وقد سألته أمّي عن صحّته، يقول: والله يا أختي أنا خسته، (وخسته بالتركية يعني: مريض، يقولون: فلان مخستك)، وتردّ أمي عليه: وهل ذهبت إلى (الخستخانة)؛ أي: إلى المستشفى؟ فيقول: نعم، وأعطوني (راشيته)، أي: الوصفة الطبيّة، فقالت له: هاتها لأبعث ابني إلى (الأجزخانة) ليحضرها لك! وكانت تسمّي لي الطريق الـ(يَسَق)؛ لأتجنّب

الذهاب منه، واليسق يعني: الممنوع أو المسدود بالحاجز العسكري[٢].

إن عشرات المئات من المفردات العربيّة التي نستعملها اليوم في أحاديثنا وكتاباتنا الرسمية والإدارية والطبيّة والعسكريّة والأدبيّة هي مما أحياه رجال المجمع والجامعة ومَنْ عمل معهم في حملة التعريب التي أُعلن النفير من أجلها، وشملت اللغة بمفرداتها وتراكيبها ومصطلحاتها الطبيّة والإدارية والعسكرية في جميع مؤسسات الدولة ورسائلها ومدارسها وكتبها التدريسيّة. ونحن اليوم قلّ أن نسمع في الأقطار العربية كلّها اسم رتبة عسكريّة أو رمزَ أمرٍ من الأوامر التدريبيّة إلّا ومَصدرُه دمشق.

لقد قام مجمع دمشق بدورٍ عربيّ تعريبيّ شمل حياة الأمة بجميع جوانبها، وكان من إنجازاته تعريب اللسان، وتعريب الإنسان، وتحرير الأوطان؛ لأنه لا تحرير ولا استقلال للعرب بغير اللسان العربيّ الموحِّد الجامع لأهله الناطقين به.

لقد قام المجمعيّون ببعث اللغة حيّة بعد هجرها، وقاموا بإحياء التراث ونشره، وتأليف الكتب وإصدار النشرات والمجلّات، ومراجعة الكتب المدرسيّة، ووضع المصطلحات العسكرية والصحيّة والزراعية والإدارية، وقاموا بنشر الوعي والمعرفة والثقافة، وإشراك الرجال والنساء في الحياة التعليمية والثقافية، ووضعوا المناهج لأول مدرسة عليا للآداب أُنشئت في دمشق سنة ١٩٢٤م.

ولعلّ خير ما أقدّمه اليوم بين أيديكم شهاداتٌ سمعتها بنفسي من أصحابها، وهي قليل من كثيرٍ مما سمعته ممن عاش في تلك الأيام، وشارك

(٢) ومن ذلك: خرجراه: نفقات سفر - رابور: تقرير طبي - روزنامة: تقويم - نوبتجي: آذن أو بوّاب - ماصة: مكتب. بوردرو: جدول الرواتب.

فيها متعلّمًا أو معلِّمًا، وأدرك الآثار التي تركها عمل المجمع في تلك النهضة التي التفّ حوله فيها ومن أجلها علماء وجامعيّون.

وأكتفي بشهاداتِ ثلاثةٍ ممن عرفتُ سَمِعْتُها من كلٍّ من الشيخ محمّد الخضر حسين التونسي، والأستاذ ساطع الحصري، والأستاذ سعيد الأفغاني.

أما الشيخ الخضر فهو من المجمعيّين الأوائل، ومن أعلام العلماء في الوطن العربي، وشيخُ الجامع الأزهر، ولقد قال لي – وهو يحدّثني عن ذكرياته في دمشق، قبل وفاته – رحمه الله – بثلاثة أشهر: «لقد سمعت في دمشق لغة عربيّة لم أسمع مثلها في البلاد العربيّة كلّها، ولقيت في دمشق من هو أعلم العرب بلغة العرب».

وقال الأستاذ ساطع الحصري – وقد كنت أحضر دروسه في معهد الدراسات العليا في القاهرة – وقد سجّل شهادته في كتابه (يوم ميسلون) ص٣٠: «لقد أصبحت الدولة السورية تستحق اسم الدولة العربيّة بصورةٍ فعليّة».

وأما الأستاذ سعيد الأفغاني، فقد كان من طلّاب مكتب عنبر، وأصبح أستاذًا للغة العربية في ثانوية جودة الهاشمي ثم في كلية الآداب بجامعة دمشق التي كان اسمها الجامعة السوريّة. وقد درسني في المرحلتين الإعدادية والجامعيّة. ولقد سمعت منه الكثير عن تلك الأيام وعن رجالها وعلمائها، وقد قال: «كانت التركة التي على العهد الجديد (يعني عهد الحكومة العربيّة التي أسس المجمع فيه) تصفيَتُها ثقيلةٌ معجزة، لكن الله آتى القائمين على الأمور حينئذٍ من حافز الإيمان وصدق العزم وقوّة الغيرة، وإخلاص العمل، ما طهّر البلاد منها تطهيرًا يدخل في نطاق الخوارق،

وكيف لا يكون كذلك، وقد أتى في سنتين على آفات ورواسب ورواسخ بقيت تتوطّد مئات السنين؟!»[٣].

تلك كانت بعض شهادات الذين عاشوا في تلك الأيّام، ونقلوا إلينا ما شاهدوه بأعينهم وعرفوه بأنفسهم. ولو أضفنا إليها شهادات بعض الرجال الذين عاشوا شبابهم في تلك الأيام أمثال علي الطنطاوي، وظافر القاسمي لعرفنا أن ما تحقّق لم يكن سهلًا، ولم يكن السبيل إليه ممهدًا، ولكنها العزائم والهمم، وحُسن التنسيق والتعاون بين الحكّام والحكماء والعلماء، هو ما أثمر تلك النتائج وحقّق تلك الخوارق.

لقد عانى أولئك الذين نسأل اليوم عن دَورهم في حياتنا معاناةً شديدة مؤلمة؛ فكان منهم مَن طورد ولوحق كالشيخ طاهر الجزائري، ورشيد بقدونس، وعز الدين التنوخي، وخليل مردم، وكان منهم من سجن كالشيخ محمّد الخضر التونسي وسليم العنحوري ومحمد البزم، ومنهم من حكم عليه بالإعدام كالشيخ سعيد الكرمي، وكان منهم من فُصل عن عمله كعارف النكدي.

لقد وهب أولئك المجمعيّون أنفسهم لرسالتهم العربيّة، ودوّت أصواتهم في أرجاء الوطن العربي كلّه، وأشاد بهم علماء المغرب وتونس ومصر والأردن ولبنان، ونأتي نحن اليوم لنسأل عن دورهم أو دور مجمعهم اللغويّ، دون أن ندرك أن اللغويّ هنا يعني الدور اللغويّ الوطنيّ القوميّ والتحريري النهضويّ!

إن أول ما يحسن أن يقال لمن يريد أن يعرف دور المجامع اللغوية هو

(٣) حاضر اللغة العربية/ ٥٧.

أن نقول له: إن البشر تعوّدوا أن ينسَوا المنعِم حين يعيشون في بحبوحةٍ من نعمه! لقد أنساهم النعيمُ الذي يعيشون فيه ويتمتعون به صاحبَ النعمة وفضلَه! وأذكر هنا مثلًا أضربه لمن يعيش في هذا العصر لاهثًا وراء كل جديد، غافلًا عمّا يعيش متمتّعًا به. لقد بعث لي صديق هاجر إلى إيطاليا منذ ثلاثين سنة قصة حادثة نشرها على إحدى وسائل الاتصال الاجتماعي قال فيها: إن رجلًا في الثالثة والتسعين من عمره، أصيب بأعراض الكورونا، فلجأ إلى المستشفى للعلاج، وبقي يومًا واحدًا على جهاز التنفّس الاصطناعي، وشفي وطولب بدفع ثلاثمئة دولار ثمن الأوكسجين، فدفعها ثم خرج ودموعه على وجنتيه! وعجب المحاسب والموظفون من بكائه لما رأوه من حسن المظهر... فسألوه عن سبب بكائه، وعرضوا عليه المساعدة من صندوق المستشفى، فالتفت إليهم وقال: أنا لا أبكي على المال الذي دفعته، ولكن أبكي لأنني عشت ثلاثًا وتسعين سنة أتنفّس من هواء ربي وأوكسجينه، ولم يخطر ببالي أن أشكره يومًا بكلمة أو صلاة!! وأنتم تأخذون ثمن تنفس يومٍ واحد مثلَ هذا المبلغ... فكم هو الدَّين الذي عليّ أن أدفعه إلى ربّي؟!

إن من لا يرى دور المجمع اللغوي ولم يدرك آثاره، كالأصحّاء الذين لا يَرَون التاج الذي يلبسونه على رؤوسهم على حين أن جميع المرضى يَرَونه!!

وتلك هي عادة البشر وطباعهم، ألم يقل ربّنا جلّ جلاله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]؟!

هل يعلم الناس في وطننا العربيّ كلّه عامّةً، وفي بلاد الشام خاصّة أن

أكثر ما يتداولونه من مفردات اللغة في مراسلات الوزارات والمؤسسات الحكوميّة والشعبيّة، وفي كتابات الكتّاب والإعلاميين، هي بعض ما أورثهم إيّاه مجمع دمشق؟! وما من وزارة ولا دائرة ولا مؤسسة رسمية أو شعبيّة إلّا استطاعت بفضل المجمعيين وقدماء الجامعيين أن تستبدل باللغة التركية التي كانت لسان الجميع وأقلامهم لغةً عربية بمفرداتها ومصطلحاتها المدنية والعسكرية من إدارية وصحّية وزراعية وغيرها، وإن أسماء الرُّتب العسكرية، والكلمات التي تُعطى بها الأوامر العسكرية في التدريبات، وأسماء الكتائب والفِرَق، كلّها خرجت إلى الوطن العربيّ من دمشق، ويشهد على ذلك اللواء محمود شيت خطّاب الذي أشرف على المعجم العسكري الموحّد، كما يشهد المعجم الطبّي الموحّد على جهود المجمعيّين والعلماء الجامعيّين بدمشق في وضع المصطلح الطبّي. وفي دمشق ولدت معاجم أخرى كثيرة في المصطلحات الزراعيّة، وفي مصطلحات الفلسفة وعلم النفس، ومصطلحات طبّ الأسنان، ومصطلحات الفقه، وغيرها. وفي دمشق ولدت فكرة المعجم التاريخي الذي تتنافس بعض الأقطار العربية اليوم على إخراجه، وفي دمشق وضعت وما زالت توضع معاجم العلوم المتخصّصة بالرياضيات والفيزياء والبيئة والحضارة ودلالات الأبنية وغيرها.

لقد استطاع المجمعيّون ومن شاركهم في سنواتٍ قليلة جدًّا أن يغيّروا وجه الحياة وصبغتها العامّة، وأن يجعلوها عربيّة مشرقة، يشارك في بنائها وعروبتها الحكّام والموظفون والمثقّفون والشبّان وكلُّ المتشوّقين إلى العروبة وما يتصل بها نسبًا وفكرًا ولسانًا.

وإني استأذن الذين يسمعون ما أقول، والذين يقرؤون ما أكتب، أن

أنقلهم معي إلى صفحة مختصرة من التاريخ الذي عشت قريبًا منه، وأدركت آثاره، وعرفت الكثيرين ممّن صنعوه وبنَوا أسواره.

لقد كان اليوم الثامنُ من آذار سنة ١٩٢٠م هو اليوم الذي أُعْلِنَ فيه استقلال سورية عن الدولة العثمانية، بعد أن تمّ جلاء التُرك عن البلاد. وكان اليومُ الرابعُ والعشرون من شهر تموز من السنة نفسها هو اليوم الذي تمّ فيه احتلال الفرنسيين لسورية.

فإذا علمنا أن مجمع دمشق أنشئ في الثامن من حزيران سنة ١٩١٩م، رأينا أن المجمع لم يكد يباشر عمله حتّى استطاع أن يشكّل نواة من العلماء والمفكّرين من الدمشقيين وممّن كان وافدًا إليها من أقطار عربية أخرى كالجزائر وتونس والعراق والأردن وفلسطين ولبنان، وأن يبدأ عمله بل معركته في الإصلاح والتعريب في زمنٍ بالغ الصعوبة والتعقيد؛ لأنه زمن خلخلةٍ اجتماعية، واضطراب وطني وقوميّ، وتضاربٍ في الآراء والاتجاهات والنزعات والمصالح بين موالين مؤيّدين للجيش المنهزم ومعادين له يطاردون فلوله، وبين منتظرين للجيش القادم ممّن أغرتهم الوعود وخدعتهم الآمال، وبين مواطنين لم يكادوا يتنفّسون عبير الحريّة التي انتظروها حتى فوجئوا باحتلال جديد!!

وأما اللغة في ذلك الجوّ الذي تأزّم وتراكمت فوقه السُّحُب، فقد كانت جماعة الاتحاد والترقي ألزمت كل البلاد العربية التابعة لها أن تكون اللغة التركية وحدها هي لغتَها في كل مناحي الحياة... وألزمت فيما بعد المؤذِّنين في تركيا خاصّة أن يرفع الأذان باللغة التركيّة!

لقد كانت سياسة الاتحاديين قائمة على طمس معالم الشخصية العربية، وفي مقدمتها اللغة العربيّة.

إننا إذا تصوّرنا ذلك الجوّ الذي كان هو الهواء الذي يتنفّسه وطننا علمنا أن أهداف المجمع اللغوي العربي كان هو الدواءَ الناجع لمقاومة كلّ تلك الأغراض المعادية للعروبة وتحريرها أرضًا وفكرًا ولسانًا.

وإني أعتقد أن هذه الأشهر الثمانية التي كان المجمع فيها في أول نشأته وإبّان نشاطه، وكان عمله فيها نورًا عربيًّا ساطعًا طبّق الآفاق، وكان صوته فيها صوتًا عربيًّا تردّد صداه في الوطن العربيّ كلّه، وفي الدول الغربيّة التي أعلمها المجمع بتأسيسه ورسالته.. = هي وحدها التي كانت السدّ المنيع في وجه الاحتلال الفرنسي الجديد، ومنعِه من أن يرتكب في سورية ما ارتكبه من حماقة وإجرام في فرض اللغة الفرنسية على الجزائر حين تمّ له احتلالها.

هل خطر في ذهن أحد ممّن يسألون عن دور المجامع اللغوية في خدمة اللغة العربية أن ينظر إلى ما هو أبعد من كتاب أُلِّف أو تراثٍ حُقِّق أو مجلّةٍ صدرت؟ إن البصائر لو استنارت عند أصحابها لسألوا عمّا هو أولى من ذلك وأثقل في ميزان الحياة وأعرق في تاريخ النهضة والتقدّم!

هل سأل سائل: كيف نجت سورية، وهي الصغيرة المُستضعَفة من سياسة الاستعمار الفرنسي الأحمق الغاشم التي نفَّذها في الجزائر بفرض لغته الفرنسية محلّ اللغة العربيّة؟

هل أدرك الذين كتبوا عن تلك الأيّام أن الفرنسيين لم يستريحوا في بلادنا يومًا من مظاهرة طلابيّة، أو هجمة ثوريّة، أو صرخات سياسية، وأنهم رأَوا في بلاد الشام حين دخلوا دمشق جوًّا عربيًّا عاصفًا تدعمه حكومة عربيّة، وتحتضنه عواطف شعبيّة تعيد إليه عروبته على الألسنة والأقلام، فخاف الفرنسيون أن يفتحوا على أنفسهم ثورة ثقافية عربيّة لم يحسبوا

حسابها، يقوم بها إلى جانب الثوار المجاهدين والمقاتلين رجالٌ علماء من المجمع والمعاهد العليا يحاربون الثقافة الفرنسية ويرفضونها، فرضي الفرنسيون بتعليم لغتهم إلى جانب غيرها، ولم يفرضوها بديلًا عن غيرها، حتى جاءت سنوات كانت دراسة اللغة الأجنبية في سورية حرّة يختار الطلّاب منها إحدى اللغتين الإنكليزية أو الفرنسية إلى جانب اللغة العربية التي هي لغة التعليم في كل المدارس والمعاهد.

فهل ذكر أحد من الكتّاب هذا الأثر الوطنيّ الذي كان نتيجة العاصفة والعاطفة العربيّة النقيّة التي كان يقودها المجمعيّون والجامعيّون في دمشق؟

وهل ذكر أحدٌ من الوطنيّين هذا الأثر الوطني القوميّ الحيّ على أنه أثرٌ من آثار المجمع اللغوية في دمشق؟!

إن جمهرة أولادنا اليوم، بل إن كل الذين ولدوا في عصر الحرية والاستقلال في هذا الوطن، وتقلّبوا في حياة النعيم، يُقدَّم لهم العلم في المدارس بلسانهم المُيسَّر، ويدرسون في الجامعات فتقدّم لهم المصادر والكتب المختصّة بلسانهم، يجهلون الكثير مما عاناه وطنهم، ومما قام به أجدادهم: رجال تلك الأيام، الذين أورثونا أيام العروبة والعربية والحرية والاستقلال، وأنا واحد ممن لم يعرفوا عن ذلك التاريخ القريب المجيد غير ما حكَوا لنا عن يوم ميسلون، ولقد عرفنا عن تاريخ الرومان، وعن صادرات الدول الأوربية أكثر مما عرفناه عن جهاد أجدادنا وأسماء الرجال الذين كان لهم الفضل في كثير مما نعيش فيه ونتمتع فيه. وعلى كل ساكن أن يعرف أن الدار التي يسكنها إذا ارتفعت فالفضل الأول في ارتفاعها لمن وضع الأساس الذي قام عليه البنيان.

أما كان يجدر بمن يسأل عن دور المجمع اللغوي في خدمة اللغة

العربيّة أن يسأل: كيف استطاعت سورية أو بلاد الشام التي كانت تعني سورية والأردن وفلسطين ولبنان، وهي أقرب البلاد العربية من تركيا، وأكثرها تابعيّة لها، كيف استطاعت أن تنجو من سياسة الاتحاديين التي أحلّت الحرف اللاتيني في الكتابة محلّ الحرف العربيّ؟!

لم يكن عُمر مجمع دمشق أربع سنوات حتى هبّت على البلاد عواصف هوجاء حملتها عواطف خادعة من أعداءٍ بلسان أصدقاء، وأيّدتها نصائح مُشفقين من الخبراء، يحاولون كلّهم إقناع أولي الأمر بأنه لن تتخلّص بلادنا من التخلّف، ولن تلحق بركب النهضة العلمية إلّا إذا تخلّت عن الحرف العربي في كتابتها وأَحّلت الحرف اللاتيني محلّه. وبدأت الضغوط لتحقيق ذلك من تركيا ومن كازاخستان ومن ألبانيا ومن بعض الدول الأوربيّة التي تَحمَّلَ كِبْرَها الإنكليز فأرسلوا المستشرق مرغوليوث لإقناع السوريين بذلك.

ألا يجدر بالسّائلين عن دور المجمع اللغويّ أن يذكروا أن مجمع دمشق هو الذي وقف في وجه العواصف والدعوات، وأن اثنين من أعضائه هما اللّذان تصدّيا للهجمة الشرسة الحمقاء، ودفعا عن البلاد أذاها: فلقد قام رئيس المجمع الأستاذ محمد كردعلي فقطع الطريق على مرغوليوث حين أَبلغه أنْ لا حاجة إلى طرح الموضوع أو مناقشته؛ لأن في ذلك قرارًا قطعيًّا حاسمًا لا يستطيع أحد أن يتجاوزه، وبيّن له أن تغيير الحروف العربية يقطع الأجيال العربية القادمة عن تراثها العربي الإسلامي المكتوب بتلك الحروف، فهل نبقى قرنًا من الزمان مترجمين لتراثنا القديم إلى تراث مكتوب بحروف جديدة؟!! وطلب إلى عضو المجمع الأستاذ إلياس قدسي الذي كان يتقن اليونانية والفرنسية والإنكليزية أن يعدّ مذَكّرة مفصَّلة في الموضوع يبيّن فيها فضل الحروف العربيّة على الحروف اللاتينيّة، فقام الأستاذ القدسي بإعدادها

وبيّن فيها ما يمتاز الحرف العربي على غيره، وعرضها على مجلس المجمع فأقرّها وعمّمها، وأصبحت قرارًا نافذًا قطع الطريق به على تلك الدعوات الهوجاء. وكانت بعض الصحف اللبنانيّة قد نشرت ما يدعو إلى مناصرة الكتابة باللاتينيّة، ونشرت صحيفة (ألف باء) الدمشقية في عددها الصادر في ١٩/ ١٢/ ١٩٢٣ ترجمة لما نشر في لبنان(٤).

وهكذا كان ردّ الأستاذين المجمعيَّين كردعلي والقدسي هو السدَّ المنيع دون تغيير الحروف العربيّة التي تمتّع بها قراءةً وكتابةً الطلّابُ والمثقَّفون، والتي نشأنا عليها ولا نعرف أصحاب الفضل في بقائها.. بل نأتي اليوم لنسأل عن الدور الذي قام به المجمع لخدمة اللغة العربية! وحسبهم هذا الدورُ وحده، إذ هو السبب المباشر في بقائنا على صلةٍ بماضينا ومعرفةٍ بتراثنا المكتوب بالحرف العربيّ.

أأذكر لكم نواة عملٍ آخر وضع المجمع أساسه ونحن اليوم نتمتع ببنيانه الشامخ؟

لقد أرادت الحكومة العربيّة افتتاح ما أسمته «مدرسة الآداب العليا» ليتابع فيها خرّيجو مكتب عنبر دراستهم العالية، وجعلت الغرض من تلك المدرسة «نشر اللغة الفصحى والآداب العربيّة»، وأوكلت إلى المجمع تنفيذ ما تحتاج إليه تلك المدرسة، فتطوّع بعض أعضاء المجمع لتدريس طلابها مدّة ثلاثة أشهر لتأهيلهم للدراسة في تلك المدرسة، ووضعوا للمدرسة مناهجها التدريسيّة، وكان مديرها الأستاذ شفيق جبري، وتولّى التدريس فيها أربعة أساتذة، ثلاثة منهم أعضاء في المجمع، وبدأ الإعداد لها سنة ١٩٢٤م، وكان الذين تخرّجوا منها قِوامَ العمل التعليميّ في المدارس، والوظيفيّ في

(٤) انظر مجلة مجمع دمشق، المجلّد ٣ ص١٧٧ وما بعدها.

مختلف مؤسسات الدولة. ولم يكن في دمشق قبلها غيرُ معهد الحقوق والمعهد الطبّي، وهي كلّها التي ضُمّ بعضها إلى بعض وأُكملت بكليات الآداب والعلوم والهندسة سنة ١٩٤٦م وحَمَلت اسم الجامعة السورية التي أصبحت فيما بعد جامعة دمشق. وكان مدير مدرسة الآداب العليا الأستاذ شفيق جبري هو نفسه عميد كلية الآداب الجديدة في الجامعة السورية.

ودعت الحاجة إلى دورة تعليميّة تؤهل الطلاب للانتساب إلى مدرسة الآداب العليا، فتطوّع ثلاثة من المجمعيّين لتدريس اللغة والأدب لمدة ثلاثة أشهر، كما قاموا بالتدريس المسائي للراغبين في تعلّم العربيّة من الموظفين في وزارات الدولة ومؤسساتها، وأدخلوا تعليم العربيّة في المدرسة الحربيّة.

لقد كان أهمَّ ما يَشغل المجمعيّين إيجادُ الثروة اللغوية العربية التي يحتاج إليها المجتمع، لذلك راحوا يتنافسون ويتعاونون على إحياء ما يستطيعون من مفردات اللغة العربية أو إخراجها من تحت الرَّدم كما قال الأستاذ البزم.

وتنوّعت في سبيل ذلك وسائلهم؛ وكان المجمع ينشر قوائم المفردات الجديدة في الصحف، وكان المبارك ينشر المفردات والمترادفات في دروسه، كما ذكر ذلك طلابه علي الطنطاوي[٥] وظافر القاسمي[٦] ومطيع المرابط[٧]. ولقد سمعت منهم بنفسي ما سجّلوه بعد ذلك في كتبهم، وهو أن الشيخ المبارك كان في مكتب عنبر إذا سئل عن معنى كلمة انطلق كالشلّال أو كالرّعد يعدّد مترادفات من الكلمات بمعنى واحدٍ، يقول

(٥) في مذكراته.

(٦) في كتابه «مكتب عنبر»، ط. دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤م.

(٧) في كتابه «النور والنار»، دار الفكر - دمشق ١٩٩١م.

للطلاب: سجّلوها واحفظوها وليستخدم كلّ منكم ما يناسب موضوعه منها. وكان المبارك ينشرها بغزارة في كتب الشروح التي أخرجها، ككتاب «كفاية المتحفظ لابن الأجدابي»[٨] و«شرح المقصورة الدريديّة»[٩]. وكان الأستاذ الجندي ينشر المفردات التي تتعلّق بموضوع واحد، كأسماء الطرق[١٠]، وأسماء الكرم، وينشرها الأستاذ البِزم في قصائده، وأما الأستاذ جبري فكان يستخرج الفِصاح من كلام العامّة في المدن والأرياف، وبذلك لبَّى المجمعيون حاجة الأمّة إلى لغة هي لغتها التي حُجبت عنها، وغابت عن ألسنتها وأقلامها. وقد صدرت من دمشق ثروة لغوية لا تحصى إلى الوطن العربي كلّه، ولا سيّما في المصطلحات الطبيّة والإدارية والعسكرية.

إن معظم ما نعم به اليوم من المفردات وما نستخدمه من كلمات ومصطلحات في حياتنا على جميع مستويات حياتنا من إدارية وطبيّة وعسكرية إنما كان بفضل تلك الجهود التي بذلها رجال تلك الأيام وعلماؤها.

وحسبي أن أضع بين أيديكم مثالًا واحدًا مما كان عليه الأمر في أواخر العهد التركي في دمشق، وما أصبح عليه الحال في الدولة بعد خمس سنوات من الجلاء التركي!؛ لتدركوا كيف استطاع المجمعيّون محوَ صفحة وطمسَ آثارها وخلق صفحة جديدة تقول كأنْ لم يكن في البلاد شيء مما سمعنا عنه، فنحن اليوم في وطننا، ولسانُنا لنا، وها هو ما ورثناه بين أيدينا وفي مدارسنا وكتبنا وصحافتنا وجيشنا، نعيش فيه، وتنتعش به حياتنا، وكأنْ لم يكن في بلادنا غيرنا!

(٨) كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ. تح: مازن المبارك وغازي طليمات. دار الفكر – دمشق ٢٠٠٣م.

(٩) تحقيق د. إبراهيم عبد الله. دار سعد الدين – دمشق ٢٠١٨م.

(١٠) تحقيق ميسم الصواف. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ٢٠١٥م.

بين يديَّ اليوم دروس قواعد اللغة العربية (دروس النحو)، ودروس التربية الإسلامية والشريعة الإسلامية التي كان يلقيها على طلّابه باللغة العثمانية[١١] في مكتب عنبر الأستاذ المجمعيّ الشيخ عبد القادر المبارك، وهي بخطّ يده، أقدّمها هديّة لمكتبة المجمع لتبقى شاهدًا تاريخيًّا على عصرها، وأقدّم معها نسخة من الدروس العربيّة التي ألقاها الشيخ المبارك نفسه بعد خمس سنوات فقط على طلّابه في مدرسة الآداب العليا، التي افتتحتها الحكومة العربية في دمشق.

إن كلًّا منهما تمثّل مرحلة، وتدلّ على عصر، وتحكي ما بين حياة الناس في عهدين من فروق! هي فروق ما بين الظلمة والنور، وما بين الضيق والسّعة، وما بين القهر والتحرّر، وما بين الاحتلال والاستقلال. إن الموازنة بين العهدين تدلّ على القفزة التي قفزها الوطن، أو قفزها المجمعيون والعلماء الجامعيّون بالوطن حين استطاعوا طيَّ الستارة الكثيفة التي حجبت أنوار العروبة عن أهلها، ونشرَ لغة القرآن على الألسنة والأقلام.

وكم يَحِزُّ في نفوسنا حين نرى هذه الردّة الظالمة الحمقاء في لغة التواصل بين الكثيرين من أبناء هذا الجيل الذي ألقته الحياة المعاصرة في حَيرة وضَياع، وجعلته يزهد في لغته وفيما ورثه من قيَم، وألبسته ثيابَ معاصرةٍ لا أصالة فيها ولا نسب تنتمي إليه، فلا هو عاش المعاصرة في تقدّمها العلميّ، ولا هو بقي على أصالته... لقد تخلَّى عن نسبه، ولم يُلحقه أحد بنسبٍ جديد!

لقد أضاعته الحضارة الغربيّة بقيَمها الزائفة، وبهرته بمدنيّتها المتقدّمة،

(١١) أريد باللغة العثمانية اللغة التركية التي تكتب بالحروف العربية، لأنَّ اللغة التركية كتبت فيما بعد بالحروف اللاتينية.

ولم تُلحقه بها، ولم تفتح له كثيرًا من أبواب علومها، ولم تتركه يعيش عيشة الكفاف على ما بقي من ذخائر عروبته ونفائسها التي سرقتها!!

وليت المجامع اللغوية اليوم قادرة على الوقوف في وجه هذه الردّة اللغوية الآثمة كما استطاع سلفهم أن يقف في وجه التتريك والفرنسة!، وكما تمكّنوا بفضل الدعم الحكومي والاستجابة الشعبيّة أن يخوضوا وينجحوا في معركة التعريب التي شملت اللسان والإنسان والحياة بكلّ ميادينها وآفاقها. ويتضح لنا ذلك في قول الأستاذ كرد علي الذي كان قائد تلك المجموعة من العلماء: «إن العرب إذا اتّحدَت غايات حكامهم وشعوبهم، وخطّط حكّامهم ومفكّروهم لتحقيق غاياتهم بإخلاص، كانوا أسبق من الزمن في تحقيق ما يصبون إليه».

إن كلّ من شهد إنجازات أولئك الرجال ممن عرفهم في دمشق والقاهرة وبغداد يشهد أن العقود الأولى من القرن العشرين عرفت بفضلهم وعلى أيديهم نهضة عربيّة عزيزة المثال في بعث الوعي اللغويّ والثقافيّ والوطنيّ والقوميّ، ونحن نقول:

وفي غابر الأيّام ما يعظ الفتى ولا خير فيمن لم تَعظه التجارِب

ونضيف: إن مثل تلك النهضة، وأكثر من تلك الإنجازات الوطنية والقومية يمكن أن تتحقق لوجود وسائل وإمكانات وتقنيات حديثة، لم يكونوا يملكونها، إذا تحقّق لرسالة المجامع اليوم احتضان الحكّام ودعمهم لها بجدّ وحزم، واستجابت لها الشعوب برغبة وإخلاص. ولعلّنا في سبيل معرفة الثمار التي تجنيها الأمة من دور المجامع اللغوية، نُفيد من علم الفِلاحة الذي يقول علماؤه: إذا أردت أن تعرف نوع الثمر وطِيْب المُجتنى فاسأل عن نوع التربة وخصبها، فكلّما طابت التربة الحاضنة للشجر طاب الغَرس وحسُن الثمر.

وأعود أخيرًا، وبعد كلّ ما سبق إلى السؤال عن دور المجامع اللغوية العربيّة في هذا العصر، وعن اتخاذه شعارًا لليوم العالمي للغة العربية، لأرى فيه شعارًا له ما وراءه!، ولأرى في اقتراحه حكمةً بليغة وبالغة ومكتوبة لأهل زماننا على عصا!!

ما أظن واضعه أراد الحديث عن دور المجامع حقيقةً؛ لأن أهداف المجامع تكشف عمّا تريد، ولماذا أنشئت؟ وما أظنّه أراد تعداد إنجازات المجامع؛ لأن كلّ ما تنجزه المجامع من تحقيق للتراث وتأليف للكتب، ووضع للمعاجم، وإصدار للمجلّات، ووضع للمصطلحات، ونشر الوعي اللغويّ بالمحاضرات والندوات، والقيام على رعاية اللغة العربيّة ومهمّة المحافظة عليها وجعلها مواكبة لمتطلّبات العصر وتطوّر العلوم فيه وقدرة التعبير عن حقائق العلوم كما كانت يوم كان العرب هم أهل العلوم... إن كل ذلك وغيره من إنجازات لا يعدو كونَه وسيلة من وسائل خدمة اللغة العربية وأسباب نمائها ورفعتها. وخدمة اللغة تعني رعاية اللسان، واللسان الناطق هو ميزة الإنسان المميَّز بالمنطق بمعنييه اللساني والعقلي، واللسان هو أداة التواصل بين الناس، ولولا التواصل ما كان اجتماع ولا مجتمع، ولولا الاجتماع ما كانت عمارة ولا بنيان، ولا كانت الحضارة ولا تقدّم الإنسان.

أفرأيتم دور المجامع الذي يرعى اللغة التي هي الأساس في بناء شخصية الإنسان، ولولاها لما كان الإنسان ناطقًا ولا عاقلًا ولا مفكّرًا ولا اجتماعيًّا، ويرعى اللغة التي هي الرابط في التواصل القومي، وهي القنطرة التي تصل التاريخ والتراث الماضي إلى الحاضر، ويعبر عليها حاضر الأجيال إلى أجيال المستقبل، وهي الحاضنة الجامعة لكلّ الناطقين بها؟!.

إني أرى وراء شعار اليوم العالمي للغة العربية، والتركيز على دور

المجامع اللغوية في خدمة اللغة العربية، سؤالًا يقول: ألم يأنِ للّذين يعقلون من القراء والكتّاب والعرب كافة أن يدركوا رسالة المجامع اللغوية العربيّة ليستجيبوا لرسالتها مؤازرة ودعمًا؟!

أيّها الزملاء المجمعيّون:

أنتم الموكلون بالقيام على اللغة العربيّة رعايةً وحفظًا، وصيانة وصونًا، وأنتم الأقدر على إدراك قيمة عملكم وخطورة مُهمَّتكم وبُعد آثار رسالتكم.

ولكل زمان تقلّبات بأهله بين عُسرٍ ويُسر، وضيق وسعة، وشدّةٍ ولين، واضطراب وسكون، وقلق واطمئنان، وبين صداقة وخصومة، وموادعة ومصارعة. ونحن اليوم نعيش في زمنٍ صعب يحتدم فيه صراع الحضارات وتنافس اللغات.

إننا في زمنٍ صعب اختلّت فيه المقاييس، وضَعُفت سلطة القيَم، واضطربت صلات الناس، وتقطّعت مودّات الأرحام وعلاقات الأقطار العربيّة، إنه الزمن الذي لم يعد أحدنا يعرف فيه صديقه من عدوّه، ولنَحمدِ اللهَ – نحن المجمعيّين – على أن وُضِعْنا على ثغرٍ من أشرف ثغور الوطن قداسةً وشرفًا، وأخطرها واقعًا وأثرًا، وأسأله تعالى ألّا يفتننا عمّا نحن فيه، وألّا يَشغلنا عن واجبنا ما يشغل غيرنا من أهواء النفوس، وكثرة الجدل وقلّة العمل، وانتظار الشكر وحبّ الظهور.

ولْنترك لغيرنا من أهل هذا الزمان أن يحبَط أو ييأس ويقنط، أما نحن فقد مَحَونا الإحباط من لغة حياتنا، وحرّمنا اليأس والقنوط في شريعتنا، وأخذنا درسًا من الطبيعة التي عرفنا فيها فصلًا تصفرّ فيه الأوراق وتجفّ الأغصان، ويكسو لونُ الموت الأصفر كلّ حديقةٍ وبستان، ثم يأتي الربيع، فإذا أتى اهتزّت الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وكذلك حياة

الإنسان، أفرادًا وجماعات، ودولًا ومؤسسات؛ تعلوها الصفرة حينًا من الدهر، ويقلّ فيها وعنها المورد والماء، فتكلّ العزائم، وتضعف الهمم... ثم يأتي فصل، فيه يتفجّر الماء وتكثر الخيرات وتحلو الثمار.

ولعلّ خير ما نوصي به اليوم أن نقول للناس عامّة، ولمن يعرف العربيّة خاصّة:

قيّموا العرب اليوم من خلال لغتهم، لترفعوهم إلى منزلتها بين اللغات، ولا تقيّموا اللغة اليوم من خلال العرب لئلا تجعلوا منزلتها كمنزلتهم بين الأمم! واعرفوا لفرسان العربيّة دورهم في كلّ عصر، وقيسوا الفارس بما يمتطيه وبما يملكه وبما يتاح له من إمكانات، وبما يلقاه من دعم ماديّ ومعنويّ... ثم اذكروا العامل بعمله، والمنعم بنعمته، ولا تبخسوا الناس أشياءهم.

وإني لأقول للعرب اليوم باسم المجمعيين: «إنما نخدم لغتكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا».

ونقول: تلك هي بعض جهود المجمعيين لخدمة العربيّة وبقائها حَيَّة فاعلة، كريمة عزيزة، دائمة الشباب، جامعة للمنتسبين إليها، فمن شاء فليصدّق وليؤمن، ومن شاء فلينكر وليكابر، إن التاريخ أعتد للمنكرين ضَياعًا محتومًا،

يا غافلًا وله في الدهر موعظةٌ إن كنتَ في سِنةٍ فالدهر يقظان

والعاقبة للمتقين، والحمد لله رب العالمين.

* * *